صور من الحياة :

ركن يتداعى

للأستاذ كامل محمود حبيب

أنسيت أنني — يا صاحبي — أنك كنت لي في ميعة الصبا رفيق الروح في وحدة الحياة، وأنيس القلب في وحشة العمر، ونور النفس في ظلام العيش!

لقد كنت إذ ذاك فتى مدقّ النشأة والمزق، تختال في الصحة وترفل في العافية، وتتألق على وجهك سمات النعمة وتبدو على جبينك علامات السعة؛ لا تعوزك المتعة الرخيصة ولا تفتقر إلى اللذة التافهة. وأبوك صائغ ماهر يصوغ من الذهب الدور والأطيان. والصائغ ساهر ينفث في العقد ليخلق لنفسه الثراء والغنى؛ غير أنه مبتلى بالشح، مرهق بالكزازة، يبروه الجزع من الإنفاق، ويدهمه الخوف من البذل: طبيعة ركبت فيه لأنه يرى الكنز بين يديه وهو يتلألأ بريقاً يخطف البصر والقلب، فيشفق أن تبدده لوثة الكرم أو أن يتلمه داء السخاء. وهكذا كان أبوك — يا صاحبي — صائغاً يصوغ الثروة ويضن بها على نفسه وعلى أولاده، فما تبضّ يده بالقرش ولا ينبض قلبه بالشفقة. فأصابك بعض قسوته وبخله. وأحسست أنت بغلظة أبيك دون شحه، لأن أمك كانت إلى جانبك، فاعتراك تكسر وفتور من طول ما دعّك عن نفسه وعن مجلسه فنفرت من دارك وأهلك.

أما أنا فكنت فتى ريق الطبع فروى المزاج، أسترسل في سذاجة وآخذ في قوة وأدفع في عنف، وأنا إذ ذاك قريب عهد بالمدينة، لم تعشني رجارة المدنية ولا خلقني طراوة الحضارة. أعيش وحيداً في حجرة وضيعة، أحس الشظف والضياع، لا أجد الرفيق ولا ألمس الراحة، أتقلّب بين عناء الدرس وعنت الحياة فلا أتذلل ولا أضيق، وأتنسم ريح القرية — بين الحين والحين — على أجد فيها بلاغاً، وأنتظر هبّات عطف أبي — بين الفينة والفينة — عسى أن أنشق فيها عطر الشفقه. فتعلمت في وحدتي أول مبادئ الصبر والأنفة، وتلقنت من فاقتي أول تعاليم الترفع والكبرياء.

واطمأن قلبي إلى قلب، وسكنت نفسي إلى نفس، فانطلقنا معاً — جنباً إلى جنب — نجتاز مراحل الدراسة في غير ونى ولا بطء، صديقين عاشا في صفاء لم يعكره خصام ولا شابه تدابر، وانطوت الأيام.

* * *

وتخرجت — يا صاحبي — في مدرستك لتصير موظفاً في وزارة الأشغال، وانفلت من شح أبيك وقسوته لتنشق — لأول مرة — عبير الحرية والخلاص، ثم اخترت لحياتك فأصبحت — بعد سنوات — زوجاً وأباً وربّ أسرة. أما أنا فقد طوحت بي الحياة في مطارحها، لا أستقر في مكان إلا لأنزع عنه، ولا أهدأ في بلد إلا لأطير عنه. فصرفتني شواغل العيش عن أن أراك وأنا لا أنسى أنك كنت لي في ميعة الصبا رفيق الروح في وحدة الحياة، وأنيس القلب في وحشة العمر، ونور النفس في ظلام العيش.

ثم هفت نفسي إليك — بعد عمر من عمري — فانطلقت، فرأيتك رجلاً تترقرق قوة فتوة، وتفيض بشراً وسروراً، يلمع الأمل في ناظريك ويبسم الرضا من نضارتك، وبين يديك صغار يرفون حواليك كالأقمار رونقاً وبهاء، يملأون الدار جمالاً وسعادة، ويغمرون قلبك بالغبطة والبهجة. أما زوجك فكانت روح الدار وريحانها.

خيره وسمته وسيادته ... اليوم، وبعد تلك الأعوام المائة ننظر إلى البناء الذي أقناه بجهادنا على أرض القومية المصرية، فلا نملك إلا أن نذكر واضع الأساس الأول في هذا البناء، وغداً حين نواصل السير في الطريق الذي نتشوف إلى بلوغ منتهاه، سنرتد بأفكارنا إلى الوراء نلتمس الهدى من تاريخ رجل هو قدوة السائرين في كل طريق.

لقد كان محمد علي مصريا بالطبع والسليقة وإن لم يكن مصريا بالمولد والنشأة. وأعظم بهذا المصري الذي شغلته مصر عن وطنه الأول وعن كل ما عداه من أوطان، وأعظم بهذه المصرية التي لقي صاحبها العظيم في سبيلها من المحن ما لم يلقه إنسان!

(أ. م)

وحين دخلت دارك ، أحسست أنك تسعد هناك بروح الجنة على ثرى الأرض ، وأنك تنعم بلذة الخلد في فناء الحياة ، وشعرت أنا بأن العزب رجل تاه خسر بهاء الدنيا ورونق الأسرة .

ثم ضربت الأيام بيني وبينك — مرة ثانية — فوجدت فقدك في قرارة نفسي ولكن قلبي كان ينبض بالرضا والطمأنينة لأنه رأى دارك تدفق بالسعادة والرفاهية .

وتناهى إلي — بعد سنة واحدة — أنك تطب لمرض ألم بك فتاقت روحي إليك ، لعلي أستطيع أن أرفه عنك بلاء الداء . أو أرفع سفعات الألم . وحين وجدت السبيل إليك ، اندفعت أنت تحدثني حديثك ، فقلت : « . . . وذهبت أفتش عن دواء للداء عيني عند طبيب من ذوي الرأي والتجربة . ووجد الطبيب فيّ ضعفاً فاستذله فتهدم عليّ يستنفد وفري ويلتهم مالي . وطالت بي مدة العلاج ، وللطبيب أسلوب فيه الخديعة والأمل ، يستر من ورائه أفانين من الجهل والجشع ، وأنا لا أجد معدى عن أن أستسلم في خضوع وأن أستخذي في ضعف . ثم ارتفعت عن عينيّ يد الطبيب ففزعت إذ أحسست بأن نور عيني يوشك أن ينطفئ فتظلم الحياة في ناظريّ إلى الأبد ؛ ولكن الأمل كان يراودني آناً فآناً ، لأنني كنت أرى بصيصاً من نور يكشف لي الطريق ، فطرت — بعد لأي . إلى الطبيب أستجديه وأستميله فوضع يده — مرة ثانية — ثم رفعها فإذا أنا أعمى قد كف بصري

« آه ، يا صاحبي ! لقد انهار كياني وانهد عزمي وتداعى ركني وأصابتني البلوى في الصميم من قلبي ، وفي العزيز من روحي ، واعتورني اليأس والأسى ، وآذاني ما انتهيت إليه . فكنت أنطلق إلى حجرتي وحيداً أنخرط في بكاء مر طويل ، وأنا أشفق على أولادي أن تصدمهم النكبة فتخبو فيهم جذوة الحياة ، وتخمد روح السعادة في الدار ، ويعصف بنا القل ويقتلنا الضيق وتذهب بعزمنا الفاقة ، فكتمت الأمر في قلبي وفي قلب زوجي .

« وثارت ثائرتي — ذات مرة — فانطلقت إلى الطبيب ، برفقة زوجي ، أريد أن أثأر لنفسي . وحين اندفعت إليه أحاول أن أنشب أظافري في عنقه انفلت من بين يدي فارتطمت بالجدار فسقطت وأنا أصرخ في غيظ وكمد لأنني لم أشف غلة نفسي .

وانطوت الأيام وأنا أعالج لوعة نفسي بالصبر ، وآسو جراح قلبي بالتأسي ، غير أنني كنت أفزع لكل نأمة وأجزع من كل صوت وأهرب من كل صديق . ورقت مشاعري فلازمني الصمت والبكاء … ثم عافت نفسي أن تنزل عن كبريائها ؛ وأنا من بيت دين وورع ، يترفع عن الاستخذاء في البلوى ويسمو على الضعف في الرزء ، فأمسكت على مضض وابتسمت على لوعة وأسلمت على بثّ .

« ثم وقعت بين فكين من الحياة فيهما الغلظة والجفوة ، فأنكرني رفاقي في غير رحمة ، وفزع عني ذوو قرابتي في غير شفقة أما الحكومة فكانت الداء العياء والبلاء الأكبر ، فلقد طردتني من عمل لا أمل فيه ودفعتني عن مكان لا أصبو إليه ، لم ترحم صبيتي ولا أشفقت على ضعفي ، فسلبتني راتبي ومنعتني حقي ونبذتني إلى الشارع .

« وفي ذات مساء جاء ساعي البريد يعتذر بلسان سيده البك عن بعض ما سطرته يد السيد في خطاب الرفت .. ورآني الساعي في محنتي فانكب على يدي يقبلهما في عطف ، ويبللهما بدموع المحبة والإخلاص … دموع الرقة والإنسانية ، فانهمرت عبراتي ، انهمرت لأنني ألفيت في الساعي كرما وشهامة على حين انطوى قلب سيده البك على ضعة وسفالة » .

وثارت شجون صاحبي فماتت الكلمات على لسانه … سكت وجبينه يرفض عرقاً لأنه يحاول أن يكتم نوازع نفسه وهي تضطرم في عنف وشدة … على حين أني لم أنس أنه كان لي في ميعة الصبا رفيق الروح في وحدة الحياة ، وأنيس القلب في وحشة العمر ، ونور النفس في ظلام العيش .

وانتفض قلبي في حرقة وأسى … انتفض لأنني رأيت صغاراً يرفون حوالينا كالأقمار رونقاً وبهاء ، فماذا … ماذا تخبئ لهم الأقدار ، يا قلبي ؟

كامل محمود حبيب